

النوافذ المغلقة وعيون الأحياب

مجموعة قصص لأحمد سويد

د. يوسف الصمياحي

وباب المعالجة يمكن ولوجه في إطار سياق موضوع القصص، وبناء الشخصيات في عرض وصفي وتحليلي يحاول أن يكون متماسكاً ومتيناً.

قصة «دخان أبيض للمداخن» حكاية فتاة «فريال» رفضت الزواج مرتين بعد حصولها على الثانوية العامة وتمكنت من إقناع أهلها وأفراد عائلتها بالسماح لها بدخول الجامعة، متحديّة تياراً سلبياً حاداً، رجيلاً قديماً محافظاً، ما زال يتحصن بالأعراف والتقاليد، ويتذرع بشرف العائلة، ومكانتها، لمنع الفتاة من أخذ فرصتها في الحياة وليوصد في وجهها نوافذ الاشراف على الواقع، ويلغلق دونها أبواب المستقبل.

لقد نجحت فريال في هذه الخطوة، وأمضت يومها الأول في الجامعة بسلام وعادت إلى أسرتها دون أن تصاب بلوثة التسيّب الخلقى التي كان يخشاها ذووها، وهي وفقاً للسياق المتوقع أنهت سنواتها الدراسية وحصلت على شهادة جامعية، ولم تعد نكرةً اجتماعية ينظر إليها بعين مواربة، لتلتقي بعد ذلك مع قصة «الضرة».

فالضرة تنمة منطقية «لدخان أبيض للمداخن» لأنها تحكي أزمة الفتاة المتعلمة في وطننا، وفهمها السلبى لدورها، وكأن هذا الكسب العصري «العلم» ينفي عنها الكينونة الاجتماعية، وينفيها داخل ذاتها. فترفض الزميل والمحامي والمهندس والتاجر، فضلاً عن تأفّفها من نصائح والدها وتوسلات أمها، التي ترى في بقائها بدون زواج خطراً يهدد مستقبلها لأن البنت في نظر الوالدين والمجتمع هي في خاتمة المطاف زوجة وربة بيت وأم أولاد، مهما علا قدرها، وحسن راتبها.

إن سلوى في «الضرة» مأزومة نفسياً خاصة أن موقعها الوظيفي لم ينتزع منها صفة الأنثى، ولم يطرد من مخيلتها التفكير في فارس الأحلام، وما فتئت مرآتها تشهد عليها بالوقوف الكثير أمامها، حتى انقلبت من صديقة تزيّن لها

هذه المجموعة القصصية لرئيس اتحاد الكتاب اللبنانيين الاستاذ أحمد سويد مكونة من اثنتي عشرة قصة يمكن تبويبها في اربعة فصول وفقاً لاختلاف موضوعاتها.

فقصص «الضرة» و«دخان ابيض للمداخن» و«صراع القبيلة» و«سلاسل في الضمير» و«الجفاف» هي من القصص الاجتماعي الذي يحاول معالجة مشكلة محددة نموذجياً فرداً. لتسحب معانيها على مجتمع بكامله. وقصص «الموت والزيتون» و«الحوت والقمر وصابر» هما من القصص السياسي اللبناني حيث الجنوب ميدان القصة، وحيث ابن الجنوب موضوعها وحيث الوطن كله غايتها وهدفها.

وقصص «النوافذ المغلقة وعيون الأحياب» و«الحصار» و«أحلام مهربة من وإلى صغد» و«البرتقال الحزين» و«خانة الاستلام» من القصص السياسي الفلسطيني حيث الأماكن الفلسطينية أو تلك التي يوجد فيها الفلسطينيون ميدانها وحيث القضية الفلسطينية موضوعها، والتحرير هدفها وغايتها.

أما قصة «أزمة خلق» فهي أشمل في الموضوع والغاية من سابقتها. وهي رمزية أكثر منها مباشرة، ولذا سنفرد لها زاوية خاصة في المعالجة والتحليل.

الفصل الأول:

بداية سنحاول أن نضع هذه القصص في سياق ترتيبي حسب موضوعاتها، وانسجام هذه الموضوعات مع المشكلات التي تثيرها، وكنا نود لو ان كل قصة مدبّلة بتاريخ كتابتها، اذاً لوقفنا على جزء غير يسير من رؤية الكاتب السياسية والاجتماعية والفنية، من خلال قصصه لا من خلال ما نعرفه عنه.

محاسنها إلى «ضرة» تكشف عيوبها وتنبئها بقرب أفول الجمال من محيّاها، لقد كانت المرأة أيام الصبا صديقة حميمة، سرعان ما تقف بها على مفاتها لتبرر رفض طالبها الزواج، مستمدة أسباب الرفض من عيوب الآخرين. فالزميل غير مرض شكلاً لأنه أفتس الأنف، مشقوق العينين فقير الحال، لم يرث عن والده إلا الفطنة والسلوك الصالح.

والحمامي ناشئ وقح الطموح لأنه تجرأ على أن يمني نفسه بها قبل أن يصبح شيئاً مذكوراً. والمهندس عمره لا يناسبها، والدنيا لم تقفر بعد من الرجال لكي ترض بعريس يدب نحو الكهولة، وتوحي ملامحه الصارمة بأنه يحمل الحياة على كاهليه، بكل جدّيتها وترمتها وأثقالها.

والتاجر: «يفتح الله» فهي ليست سلعة لتزوج من هو دون مستواها علمياً واجتماعياً سلسلة من الرفض الموصول أيقظتها ذات يوم على مصير العانس التي فاتها قطار الزواج فمضى بها العمر الى المجهول. لقد حطمت سلوى المرأة وهي بفعلها هذا حطمت الحلم الذي بنته بيديها، انها امام المرأة نسجت الأسطورة حول نفسها، وهي أمام المرأة وجدت الأسطورة حطاماً.

لكن ما الذي أدى بها الى هذا المصير؟ هل كما قالت أمها عن البنت المغرورة التي لا يعجبها العجب، الفتاة التي أفسدتها الثقافة فحولتها الى لوح من جليد، أو جدار من خشب؟.

انها ليست كذلك، فهي ما فتئت تلتهم القصص الشبقة لألبرتو مورافيا وهي ما زالت تحلم بالفارس الذي ستفرش له الأرض ورداً، وتطوقه بسياج الحب الذي تختزنه له بين حناياها، فهي أنثى ولها شعور الأنثى وكيونة الأنثى، وطموح الأنثى، لكنها تأخرت عن الموعد المقرر فكان الأجل المحتوم.

نسيت ان لكل شيء حدوداً فأضحت فريسة غرورها، ولم تر في العلم أداة للفهم والاستنارة، وإنما للتنكر للواقع والصدام معه، فكان مصيرها منقاداً لكبرها، وكانت نهايتها ملائمة لبنية شخصيتها.

ان سلوى «الضرة» رمز الانسلاخ عن الواقع والنفور منه، حتى اذا ما حاولت العودة اليه، لم يعد قادراً على

القبول بها، ولم يبق بين يديها إلا الريح والصمت والسراب. «الضرة» و«دخان أبيض للمداخن» قصتان متكاملتان، مستمدتان من الواقع، وتقصان موقفاً بين جيلين، أحدهما مشدود الى الماضي والثاني منجذب إلى المستقبل، وكلا الجيلين مبالغ في موقفه. فالتعلق بالماضي في إطار التزمت والانكماش مثلية تجاوزها الجيل الجديد وكان محققاً في ذلك، والعلم أداة هدي واستنارة لكنه لا يعني الرؤية الوهمية للواقع. والانفلات الى عالم يرسمه الخيال، وكلا الجيلين ملتصقان متكاملان، فالآباء محتاجون الى الجيل الجديد، لنبذ الأوهام، والجيل الجديد محتاج الى الآباء وماضيهم الحافل بالتجارب.

الجيل القديم محتاج الى أن يتجاوز الواقع كما فهمه، وجيل الشباب محتاج الى التثبث بالواقع في بعض ما عرفه ونبذ بعضه الآخر، حتى لا يحدث التنافر، ويختل التوازن، فتكون المأساة. كما حدث في «الضرة» و«هبية وصرع القبيلة» التي تحكي حكاية التقاليد العتيقة والقيم البالية، الراسية في أعماق الذات، والألبدية في أعماق النفس الى حد لا يمكن للعلم أن ينتزعها أو يخفف من غلوائها فضلاً عن أن يجتثها من جذورها، فهي تراكات أجيال لا يمكن تبيدها بمعرفة حدودها سنوات.

فمجندي شاب جامعي، الا أنه بدوي المنشأ والطبع، ضيق الأفق اجتماعياً تتحكم في سلوكه الغيرة غير المعللة والانفعال لأدنى سبب، خاصة فيما يتعلق بشؤون المرأة وعلاقتها بمحيطها من خلال الدراسة أو العمل، وربما كانت هذه الغلظة في طبعه، وتلك القسوة في سلوكه من العوامل التي قربت «هبية» منه شعوراً منها بقوة شبابه وقدرته على حمايتها، واستعداداً منها لتخفيف حدة مزاجه وترويض نفسه على القبول بما أصبح من المسلمات الاجتماعية.

لقد منّت نفسها كثيراً بالقدرة على الانسجام معه، والتوفيق بين طبعه البدوي، وتربيتها الحضرية، دون أن تنسى للحظة واحدة مواقفه المترنمة وسلوكه الأرعن، فهو صفع زميله لأنه أطرى تسريحة شعرها وقطع علاقته بصديق الطفولة هشام لأنه غبطه عليها، وأعطى عين الغد، لأستاذ التاريخ لأنه ضاحكها بعد إحدى المحاضرات وأثنى

الناس ليزيد من تكبره، وليحكم قبضته المعنوية على أعناق الجميع، إذ لا يعنيه الحديث عن الجفاف وخطره على الزرع والضرع إلا بمقدار ما يجعله وسيلة لترويع الناس بغضب الله عليهم، حتى إذا ما تحدث أحدهم عن الآبار التي تحفرها الدولة لسليمان بك امتعض الشيخ عثمان وأشار إلى أحد الجلوس كي يتحدث عن طرده للحمى التي لولاه لفتكت بهم وبأطفالهم، فهو يتولاهم ببركته، ويحجب شرها بأدعيته وشفاعته وراحته الطاهرتين.

هذه هي الجلسة اليومية للشيخ عثمان التي جعلت الطالب محمود سعفان يحاول تغيير مسارها بالطلب إلى الناس التوجه نحو الدولة لري أراضيهم باعتبارها مسؤولة عنهم، وليست أرض سليمان بك أفضل من أرضهم إنما أهملوا حقهم فأهملت الدولة شأنهم.

حديث لم يتعوده الناس ولا ألفه الشيخ عثمان الذي احمرت عيناه وتضمرت وجنتاه صائحاً: العياذ بالله...! ما هذا السم الذي يجرعونكم اياه في المدارس، ان الله يا هذا هو مقسم الأرزاق، ألم تسمع قوله تعالى «ورزقكم في السماء وما توعدون» وانهل على الناس متفاصحاً غاضباً، وما هي الا لحظات حتى مرّ سرب طائرات للعدو، فاهتبل الطالب الفرصة ليقول للشيخ: وهذه مما كتب الله علينا، أم أنها هنا لأننا كفروج أبي العلاء.. وهنا تجلّت جهالة الشيخ ودجله على نفسه والناس حيث ذكر بأن أبا العلاء كان مجاوراً له في المستشفى، وأسقط في يده حيناً أوضح له الطالب حقيقة الأمر.

في «الجفاف» رأينا المجتمع البسيط الساذج الذي يتحكم به المشعوذون تحت ستار الدين، إنه مجتمع الريف حيث تنفّس الأمية، وتسمح للمشعوذين بالاستغلال، لكننا لسنا أمام اليأس، فالأمل موجود، ومتمثل في طالب العلم الذي لا ينكر القيم الدينية ولكنه يوضح للناس بيسر سوء استغلالها.

إذا كانت البساطة هي الغالبة على مجتمع الريف في «الريف» فإن الوجه المقابل هو المدينة، حيث أساليب الدهاء تطالعنا في قصة «سلاسل في الضمير» فالقطة الحمراء «امرأة» تعيش في حماة الرذيلة، وهي أمثلة لعدم إمكان التعايش بين الخير والشر، ورمز لانتصار الخير وأن الشر يأكل بعض بعضاً، إنها فضح للنوايا العابثة وهزيمة لها،

على ذكائها، ومع هذا أصرت على تأكدها من سلاسة قياده حين تنتهي لديه نزعة التفرد وحب التملك بعد أن يربطهما رباط الزوجية السعيد، لكن أحلامها تبخرت لدى أول اختبار حينما التقت زميل الدراسة الثانوية في الفندق الذي كانا يقضيان فيه شهر العسل، واحتشدت القبيلة، وهاجت وماجت في أعصابه، وأنهى كل فرصة للحوار والفهم بقوله: ظلّي مع ماضيك، وتحياتي لزميل الثانوية.

فالمجتمع وأصوله التقليدية هما الأقوى في بنية الشخصية، والعلم على أهميته واقتحامه البيوت والعقول لم يستطع أن يستل من النفوس طباعاً تراكمت عبر أجيال، فالغيرة لأتفه الأسباب، والغرور بلا سبب، والاحتجاج على العلم وفائدته للذكر والأنثى (وهي خلاصته موضوعات القصص التي مرت) كلها تتسربل بالألباب، وتقيد التفكير، وتجعل فائدة العلم مقتصرة على المظهر الخارجي للحياة دون جوهرها، ودون أن تنفذ إلى أغوار الروح والضمير لتجلوها من الأوهام والسخافات التي اتخذت مستقراً مكيناً لها في أعماق الذات.

ان هذه العادات والقيم في صدامها مع العلم تتجلى بوضوح في قصة «الجفاف» التي تحكي حال قرية كاد أن يصيبها القحط وسوء المنقلب، فموسم الشتاء مضى دون محصول، وموسم الصيف، أهلكه الوباء، وآبار المياه شحّت ينابيعها، ولم يعد في القرية ما يمكن الناس من الحصول على شربة ماء بيسر وسهولة، فكثرت المشاكسات بين النساء حول عين الماء الوحيدة الباقية، وهدد الجفاف قطيع الماشية ومراعيه، كل هذا والشيخ «عثمان» بمظهره المتكلف وسبحته الطويلة يعتبر المسألة غضباً من الله على البشر الذين لا يقيمون الصلاة ولا يؤوتون الزكاة ولا يصومون رمضان، وأهلا القرية السذج يصدقون أقواله ويتباركون بتعوذاته، ويتركون له صدارة المجلس ليحكى لهم يوماً عن معجزاته الخارقة التي تمكنه من طرد الشياطين المتلبّسة بالنفوس، وكانت آخر شعوذاته ضرب أم سعيد الدهوني حتى سال دمها وتورّم جسمها، وبهذا أجبر العفريت على الخروج منها.

الشيخ عثمان هو الطبيب والامام، وهو نموذج لاستغلال قدسية الدين والاستحواذ على ثقة الجهلة من

وانتصار للقيم السامية وحضّ عليها.

هروبه الى الأمام فاق كل تصور، فكأنه لم يخرج من مجتمعه الضيق بين أركان الخيمة الأربعة والقطعة الحمراء «سلاسل في الضمير» حاولت التحدي فأوصلها الى المأساة ثم حاولت الهروب فانتهدت الى الضياع.

الفصل الثاني:

هذا الفصل فيه قصتان، «الموت والزيتون» و«الحوت والقمر وصابر» وميدان القصتين هو الجنون. في «الموت والزيتون» صورة الفلاح الجنوبي الطيب، المترقب يوماً غارات العدو، تقصف أحراش الزيتون، وبساتين البرتقال، وحقول القمح، دون أن يملك ما يقاوم به هذا العدوان الا التشبث بالأرض والعناية بها، والمزيد من غرس أشجار الزيتون فيها.

وهو في الوقت نفسه ينحى باللائمة على الذين تصفهم اسرائيل فيتعالى صراخهم واستنجادهم، ويتراكون الى الاختباء وراء عجزهم كالفئران، مئة مليون جبان لا يعرفون الحجل، فهو فلاح لا يفهم في الفلسفة، «ولكنني أعرف جيداً أن الهرة تتحول الى نمر كاسر حين تجد نفسها في موقع الدفاع عن النفس أيا كان المهاجم».

الفلاح البسيط فهم المقصود من الغارات، فالعدو «يستهدف كل ما يرمز الى الحياة فوق أرضنا» ولذا كانت مقاومته بقدر فهمه، أي بمزيد من العلاقة بالأرض، والحرص على غرسها وقدرتها على العطاء، في وقت أصبح فيه الموت عادة يومية، وصارت الطمأنينة تهرب من النفوس لتفتش عن ملاذ فلا تجده حتى في دهاليز الملاجئ البدائية، وهذه هي أزمة صابر في القصة الأخرى «الحوت والقمر وصابر».

أزمة صابر هي الوطن المهدد والسكان النازحون، والعدو الصلف، صورتان تتزاحمان في ذهنه:

الأولى «صورة أهل قرיתי يهّون لنجدة القمر حيث كان يهم به الحوت، كانوا يهدون الى أواني النحاس وألواح التنك، يقرعونها بشدة ويهرعون الى بنادق الصيد يطلقون منها العيارات في الفضاء ويظنون يلاحقون الحوت اللعين بقرعهم المتواصل وطلقاتهم الى أن يرغموه على الهرب

— فالقطعة الحمراء التي التقت المهندس ليلة رأس السنة دون أن تتمكن من انتزاع ابتسامة من شفتيه، أصبحت زوجة له، لكن العشق، جرفها الى حد لم يعد لديها القدرة على العودة عنه، والمهندس نقي السريرة الى درجة لا يمكن أن يسيء بها الظنون، هي أمعنت في الفسق وهو بالغ في السماحة، فهما ضدان لا يلتقيان، حتى أيقظتها نسمة الحياة في أحشائها على آثامها، فانتقمت من عشيقها بقتله وحاولت تطهير نفسها بالذهاب بعيداً بعيداً عن زوجها. في هذه القصة شغف الكاتب باستخدام الألوان في التعبير، كالقطعة الحمراء، وملهى القطعة السوداء، والواحة الخضراء، وليلة طويلة بيضاء، ونهايتها تأكيد لتنافر الأضداد، فهروب المرأة من زوجها يعني عدم إمكان تعايش الفضيلة والرذيلة.

هذا هو الفصل الأول من المجموعة القصصية، ركز فيه الكاتب على الجانب الاجتماعي، وأثر العلم في الحياة، والخلل الناجم عن التصادم بين القيم القديمة والمستجدة، وبسط مجموعة من المواقف التي تضج بها نفوس الشباب، وقدم لنا نماذج مجتمعية تتفاوت بين الخير والشر، ولمس جوانب أساسية في بنية الحياة مؤداها أن الطفرة أو التحول في شخصية الانسان أو المجتمع لا يمكن أن يكون فجائياً، ولا مناص من ضحايا للتطور، والعلم وحده ليس عصا سحرية، وإنما هو وسيلة تتضافر معها وسائل أخرى حتى لا يختل التوازن الاجتماعي.

والملاحظ أن الكاتب بين المواقف المختلفة على التضاد، وأوجد شخصيات لها مسارها الحياتي الخاص الذي يولد الموقف دون قدرة على التراجع عنه في محاوله للتحدي أو الهروب.

فالشيخ عثمان «الجفاف» يعقد العلم لسانه في موقف الجدل لأنه بالغ في الشعوذة والهروب من حقائق العلم والحياة.

وسلوى «الضرة» انتهت الى اليأس لأنها غالت في التحدي ومواجهة المجتمع دون أن تعمل حساباً للزمن أو تضع حداً للعناد.

ومجدي «هبية وصراع القبيلة» عاد بدوياً كما بدأ لأن

واطلاق القمر.

والثانية: قوافل النازحين نحو المسرب الشمالي حتى خلعت القرية من ساكنيها وبقيت وحدها فريسة للحرائق والرهبنة والأشباح.

وبين الصورتين موقفه: لن أتركها وحيدة، ولن أخرج منها كما خرجوا، فعزيز عليّ أن أخرج من ثيابي، من جلدي، من هويتي».

هذه القصة غنية بالدلالات، ربما بسبب مقدمتها الأسطورية، وعنوانها نفسه يوحي بذلك فالخوت رمز للعدو، والقمر رمز للضحية وصابر مطالب بموقف إما الاستسلام وإما الصمود والمقاومة، فاختر البقاء ولاذ بالمقبرة، ثم حين رأى منزله مدمراً تساءل: يا لله ألا يستطيع هذان الساعدان أن يحميا منزلي؟!... إنها بداية التفكير بالفعل والمقبرة بقدر ما هي رمز للانتهاه فهي مجال للاستشارة، وربما كان النوم فيها حافزاً على الفعل لأنها تذكر بالمصير المحتوم مهما امتد بالإنسان الأجل ولجوء الأحياء إليها تعبير عن موتهم الحقيقي، فالأولى تركها والعودة إلى القرية حتى ولو كانت ياباً. وكأن هذه العودة تعني الولادة من جديد. لكنها ولادة قيصرية، فالشعور بالخطر ما زال فردياً، معنى هذا التراجع بين الأمل واليأس، والاستسلام لكوابيس من الرعب والجنون إلى حد اتهام الوطن بالجبن «الجبان هو وطني، الجبان هو وطني» أليس هذا ما رده صابر بصوت عال حين حدثته نفسه بالهزيمة، علماً بأن الوطن لا يجبن ولا يشيخ ولا ينسى، وهو ما أكدته ماجد في «الحصار».

الفصل الثالث:

يبدأ هذا القسم بقصة «النوافذ المغلقة وعيون الأحباب» التي تمثل صراع الأجيال سياسياً بين الشباب بحسه المتوقد، والشيوخوخة بإستكانتها الواهنة، بين «صابر» العامل، والمعلم رب العمل، الأول يحلم، والثاني يشخر الأول علمه يقظة، والثاني نومه غيبوبة، فإذا عاد كل منهما إلى حالة الوعي، فليلعن صابر الزمن البطيء الذي يعيقه عن اتمام مهمته، وليصف المعلم صابراً بالكلب.

الثورة ما زالت في طور الحلم، وصابر قصّ علينا تصوّره لعملية مكلف بها دون أن ندري نتيجة ذلك، لكن موقفه أقرب إلى الحماس منه إلى الفعل، فالجو النفسي الخائق أعطى ظلالاً ملونة بالأسى للأماكن والحياة والطبيعة في الأرض المحتلة، ف«طبريا» تغرق في سباتها الأسيان» و«نقيق ضفادعهم يختلف عن نقيق ضفادعنا» و«مساء هرة جائعة يمزق الصمت البليد بفتور ويأس ومسكنة» و«هبات من ربح خريفية كسول» و«نجيب بومة» و«سروة تسربلها الكآبة».

هذه الظلال الحزينة هي انعكاس لرؤية الأشياء في نفس صابر، ورؤيته لها على هذه الشاكلة منحتة إحساساً بحجارة الأرض وانشداده إليها «وشعر كأن سيلاً من عيون الأحباب يخترق النوافذ المغلقة ويهرع نيسيجني ويملأ بالعزم والاصرار قلبي وزندي» وكان الطاقة الكامنة قاربت الانفلات من عقلاها وأصبحت في مدار التوجيه الصحيح. لكن صابراً يضيف على الموقف صبغة الاسترجال فيفرغه من هذه الشحنة الإيجابية وينتهي به إلى التلاشي حين يسيطر عليه الانفعال فينصرف إلى شتم العدو، ورميه بالصفات الجزاف بدلاً من الصدام معه حتى في الحلم «يا جرذان الليل» «أضواء منازلهم تبخلق فيما حولها بعهر ورهبة» «وتمر دورية من دورياتهم تجرجر جنبها وعهرها». ومثل هذه التراكيب تعبير عن طور من أطوار القضية نفسها حين كانت علاقتنا بالأرض والدفاع عنها والعمل على استعادتها، معتمدة على هذه الأساليب ومقتصرة عليها، وعندها لم يكن كلامنا يجاوز آذاننا حتى التقينا بمرحلة أخرى في «الحصار» مع ماجد الذي نذر نفسه للعداء، وأصبح رهين الأرض والوطن، وحاول البقاء في الأرض المحتلة، منتقلاً بين الجليل والجولان، إلا أنه ما زال عرضة للاختبارات الحرجة، وكاد أن يقع في شرك الغواية في رأس السنة، وهو وان نجا بعد تجربة مرة، فصديقه رأفت غائص حتى النهاية في لجة العريضة، وهذه هي الأزمة، ما زال في الحانة متسع للشباب، تماماً لمقهى المعلم الذي يأوي إليه الشيوخ، لكن طوراً جديداً قد بدأ في شخص ماجد، وهو وان كان فرداً، ولم يصبح بعد جمعاً حيث الحانة والمقهى هما ملتقى الجماعة، إلا انه خطوة إلى الأمام، تجسدت في مرحلة تالية من حياة الفلسطيني في

الفصل الرابع:

الفصل الرابع من هذه المجموعة القصصية، يضم قصة واحدة «أزمة خلق» وهي فريدة في موضوعها، وغنية بدلالاتها، وخلاصتها بيان لاقحام الذات في مأزق العجز، ومحاولتها على فعل ما ليست هي أهله بدافع الحسد والغيرة غير المحمودين.

فالأستاذ حمدي مُصرّ على أن يكون مبارياً للشاعر عبد الودود، ومعاند في تقوّل الشعر ونظم القصيد، ولذلك يهَيء نفسه للقصيدة الغراء فينفض شعره، ويعدّ قهوته، ويهيء رزمة من الأوراق أمامه، ويحاول التركيز كمرحلة أولى لا بد منها في عملية الخلق، ثم تبدأ المرحلة الثانية في محاولة اختيار الموضوع فيصطدم باستهلاك موضوعات الغزل والفخر والرثاء، ثم يعلل النفس بموضوع مبتكر لم يسبقه إليه أحد، وهو الجهاد في سبيل الله من أجل فلسطين، لينتهي بعد ذلك الى رحلة صباحية على الشاطئ ففجأته الرياح ببعثرة أوراقه وعودته الى المنزل مجرّجراً اذبال الحية والخسران.

القصة في جوهرها تجاوز هذا الموضوع الخاص بمنافسة شويعرٍ لشاعر، لتشير إلى تحكّم حب الظهور في الذات العربية، وتضييع الوقت في كثير من الترهات التي لا طائل منها، وما يستتبع ذلك من تديد للجهد والعرق، في غمرة من نسيان رياح الحياة التي لا تأبه بكل ذلك، والتي اذا هبّت فستعصف بكل ضعيف وهزيل، وواضح ان الدلالة سياسية بدءاً من عنوان القصة، اذ ان الحسد الذي يدفع الأستاذ حمدي الى هذا الموقف السلبي من الشاعر عبد الودود هو العقدة في حمل نفسه على ما ليست هي أهله متناسياً ان عبد الودود شاعر بالفطرة، وانه خلق للشعر، وعليه أن يسلم بذلك قانعاً بدوره كمدرس، بتعبير آخر فإن الأستاذ حمدي هو كل الذين يريدون مزاحمة مصر في دورها، وعبد الودود «مصر» اسماً ومسمى، لم يطلب لنفسه هذا الدور، وإنما خلق له، وهو ليس صاحب المشكلة وإنما الخلق الآخرون، ولما كان عنصر العجز هو المسيطر على الآخرين فلا بد من موضوع يعوض العجز، ويلقى رواجاً لدى الجمهور «الشعب» وهل أقوى من

في «الحصار» ودعنا الحانة مع ماجد، وكانت المبادرة فردية، وهنا مع مصعب استقبلنا حياة المقاومة وأصبحت المبادرة جماعية، وصار حلم اليقظة لدى صابر في «النوافذ المغلقة» واقعاً حياً هنا، فهنا قيادة سيستأذننا مصعب للقيام بعملية في صفد، لكن القدرة على الفعل محدودة، والجهود الضئيلة مشتتة بين فكّين جارحين، فكّ العدو، وتحرشات الاخوة الضالين ولن يتحقق الفعل إلا ببيان الحقيقة، والعودة في وضوح النهار، وتجسيد المقاومة، إنها أمنية مصعب، وأمنية أمه، ولأن الفعل تقلص إلى مستوى الأمنية، فإن الرهان كان على سلاح الكم البشري، فخطية مصعب أفهمته بعينها استعدادها لانجاب زمرة من الأولاد، وابن خاله استقبل طفله السابع، ثم تقزم الكم البشري الى أسماء، فأصبحنا نسمي بناتنا باسم «ثورة» وأبناء باسم «عائدون».

الفعل في الثورة ما زال في طور التكوين الجنيني، وانتظار الولادة هو سيد الموقف، فمصعب ينتظر مهمة في صفد، وأمّه تنتظر عودته يوماً ما، والآخرون كلهم مشغولون بالانتظار في قصة «البرتقال الحزين وخانة الاستلام» حيث الخيم، والاعاثة، والتوزيع الشهري للتموين، والقهر المرافق لهذه العملية في طوابير الاستلام، حتى تفجّر الموقف انفعالاً لدى يوسف، بتمزيق بطاقة تمرين أمان مسؤول الاعاثة، تأفقاً من الانتظار الطويل.

خلاصة هذه القصص أن الانتظار أزمة، ما زال الانسان في ديار العرب عاجزاً عن تجاوز طوقها، فصابر ينتظر الساعة الثانية عشرة لينهي حلم اليقظة ويبدأ بالفعل، وماجد ينتظر نصف الليل في رأس السنة ليفك نفسه من أسر الحانة وجوها المشحون بالفسق، ومصعب ينتظر نهاية الاقتتال بين الاخوة ليبدأ القتال ضد العدو، ويوسف ينتظر في طابور الاستلام حتى يشعر بالاهانة ويمزق بطاقة التموين.

ما زال الانتظار يربك خطواتنا حتى أصبح جزءاً من المشكلة نفسها، وقوتاً يومياً تجتره أجيالنا، ونمني النفس بغد أفضل على أساسه، لقد غدا الانتظار سراباً ليس له مدى ووهماً ليس له معالم.

أطار من وحدة الخط ليوصلنا الى خاتمة تتناسب مع البدء، مستعيناً بنفحة التفاؤل في أشد لحظات اليأس، لكنه في طريقة التعبير عن هذه الرابطة انفلتت منه ألفاظ عامية لانتمائها لأسلوبه الشيق لأننا من أنصار المبدأ الأصولي في الأدب والنقد ولا نستملح مثل هذه الفلتات، فكلمة مثل «يلطى، وكش، وشقل، وشقلب» مستكرهة في أسلوب أدبي مزين بالصور البيانية المستحبة.

وكلمة «القفا» في عباراته ارسل لها صورته بزیه المرقط وكتب لها على «القفا» مجموعة في هذا الموضوع لانصراف الذهن عنها الى ما هو مرتبط به من مفهومها، خاصة ان التعبير بالكناية في «عريض القفا» لا يخفى على الكاتب ولا على قرائه، ثم ان الكاتب استخدم الكلمة نفسها في صورة بيانية تعبر عن مفهومها في قوله «صراخ المغني ينطلق كالسوط الذي يلسع الأفقية». و«كلنا للوطن» تراءت لي حروفها كحزمة عصي تصفع قفائي».

مثل هذه الصفات تعكر صفو العمل الأدبي، وتبدو كالبثور في وجه الحسناء، ونحن لا نتمنى ذلك لأسلوب الكاتب بعد هذه الرحلة الطويلة مع الكتابة.

هذا على صعيد الأسلوب، أما على صعيد البناء الفني، فقد أحسنا بأن القصة القصيرة لم تكن عنده صنعة تفكير أو قوالب بناء وإنما هي حساسية في صنع الحدث، وفهم المنطق النفسي للشخصيات، واحتفاظه بوحدة الخط مهما تعددت المسالك وتشعبت الطرقات، واقتصاد في التكوين يخفي وراءه ثروة من المعاني، ووحدة فنية متماسكة إلا ما انتثر أحياناً من استفراء لا يخدم هذه الوحدة كما في «الجفاف» و«سلاسل في الضمير».

هذه هي المجموعة القصصية «النوافذ المغلقة وعيون الأحباب» للكاتب اللبناني أحمد سويد، وصفاً وتحليلاً ونقداً، وله مجموعتان غيرها هما: «المعذرة من الشمس» و«لا سعال في الليل» نتمنى العودة إليها لرصد نمو الملكة الفنية لدى الكاتب في هذا الجنس من أجناس الأدب.

د. يوسف الصميلي

الجامعة اللبنانية

كلية الآداب والعلوم الانسانية — الفرع الرابع

هنا تكتمل خيوط القصة في محاولة من التكثيف لاختصار حياتنا السياسية المعاصرة، وفلسطين في أفواه الجميع، وهي وسيلة للذين يريدون الزعامة وهم عاجزون عنها، ويدورون في هذا الفلك من السراب، غير عابئين بقيم الحياة من حولهم، بل انهم يهربون من هذه القيم وينسلخون عنها إلى شاطئ الوهم حيث تعصف بهم العواصف التي لا يدرون مصدرها ولا يعرفون لها دفعا، وهذه هي الأزمة الحقيقية، أزمة في الابداع وأزمة في الرجال وهو سر التورية المستحبة في عنوان القصة، «أزمة خلقت» وأزمة في الخلق والأخلاق وهذا ما يمكن فهمه بسهولة في سياقها.

وعملية نقش الشعر وخلع الملابس بقدر ما هي تعبير عن الاستراحة من أثقال العمل بقدر ما تعني هذه الفوضى في عملية الاعداد للفعل المطلوب، فالذي يريد فعل شيء يستعين بالنظام لا بالفوضى، وبالتنسيق لا بالعشوائية، ثم إن ترك المنزل الى الشاطئ بقدر ما هو مصدر للانشرائح والتأمل، بقدر ما يعني هنا الهروب من الواقع بعد العجز عن التغيير فيه، الى واقع جديد لا حاجة فيه الى تغيير، وهو هروب الى الأمام لأن الغرض هو اكمال القصيدة أي إنجاز المهمة المقدسة «فلسطين» فهو اذاً يستحق الانشغال عن موضوع البيت، والتضحية بتركة نهياً للبعثرة والتفكك.

يمثل هذا النوع من الأدب تجاوز القصة النص الذي هو لها إلى إطار من الحياة، فتصبح وكأنها وثيقة فنية لا تندثر بمرور الزمن، خاصة وأن الأستاذ حمدي «اقحام الذات في مأزق العجز» لم يتمكن من الاستمرار في الهروب، وفي الوقت نفسه لم يئن بنفسه الأزمة، وإنما أنهتها الرياح الطبيعية، أي الواقع المباشر للحياة والناس، وهو الأمر الذي لا يمكن دفعه والهروب منه. وهذا هو خيط التفاؤل، والبطشة التي ينقلنا فيها جو القصة من اليأس الى الأمل، ومن التشاؤم التي التفاؤل ومن قشرة الحياة الى لبها.

الأسلوب والبناء الفني:

لقد رأينا في التحليل كيف حاول الكاتب: أن يجعل سلكاً بين مختلف أنواع القصص ذات الموضوع الواحد في